الباب الرابع

مرويات شعرية وقيم جمالية

تمهيد

كان الجاحظ من أوائل النقاد الذين أدركوا الجمال في الإلف الذي ينبغي أن يكون بين اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون، إذ سوّى بينهما شريطة أن يتحقق في كل منهما ما يرفعه ويسوغ قبوله حيث يقول: «فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً عن الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة»[1].

والشرف الذي جرى ذكره عند نقادنا الأوائل وشاع حتى عدّ ركناً أساساً في طريقة العرب، لا أراه إلا دائراً على أبعاده الثلاثة: الخلق، والعقل، والابتكار، وعياره كما حدّه ابن طباطبا «أن يورد على الفهم الثاقب فما قبله واصطفاه فهو وافٍ، وما مجّه ونفاه فهو ناقص، والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه ونفيه للقبيح منه، واهتزازه لما يقبله، وتكرهه لما ينفيه، أن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له، إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه، وموافقة لا مضادة معها»[2].

والنسبة التي تربط هذا الشرف بالجمال هي الفن القادر على الإيحاء والتأثير، ببراءة من عيوب التعبير بأدواته من اللفظ والتركيب والتصوير، وممازجة النفس بالمألوف المعتدل في ابتكاره، البعيد عن الإحالة في موارده ومنطلقاته؛ لأن «الفهم إنما يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق، والجائز المعروف المألوف، ويتشوف إليه،

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٨٣.

(٢) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ١٤.

ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل، والمحال المجهول المنكر، وينفر منه، ويصدأ له، فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوماً مصفى من كدر العي، مقوماً من أود الخطأ واللحن، سالماً من جور التأليف، موزوناً بميزان الصواب، لفظاً ومعنى وتركيباً، اتسعت طرقه، ولطفت موالجه، وقبله الفهم، وارتاح له، وأنس به، وإذا ورد ضد عليه على ضد هذه الصفة، وكان باطلاً محالاً مجهولاً، انسدت طرقه ونفاه، واستوحش عند حسّه به، وصدى له، وتأذى به، كتأذي سائر الحواس بما يخالفها»[1].

ورعى أصحاب المنتخبات الشعرية هذا المعيار الجمالي على نحو من الأنحاء، على الرغم من تنوع مذاهبهم الأدبية سواء في ذلك من قصد إلى اللغة وفحولتها، أو من نظر إلى المقلين المغمورين دون المشهورين، أو من جعل التشبيه والتصوير والوصف غايته، وهم جميعاً يصدرون في ذلك عن محور نقدي ضمني يجمع إلى الذوق، التحليل والموازنة والحكم؛ لأن «اختيار الرجل قطعة من عقله تدل على تخلفه أو فضله».

وتأتي مرويات شعرية عديدة تنزع عن معيار الإحسان في اعتماد شرف المعنى أساساً مع العناية بالصورة التعبيرية التي أخرج بها، لتؤكد العلاقة القوية الحميمة بين المضمون والشكل أو المعنى والصورة، في معادلة متوازنة متناغمة العناصر، بين إحكام البناء وعمق الحكمة ودقة المعنى وإصابته.

وتتنوع هذه المرويات وتتعدد من حيث الطول وعدد الأبيات، إلا أنها تجتمع في قسمين:

- القصائد الأفراد.
- الأبيات المفردة.

---

(١) المصدر نفسه ص١٥.

ولا ينازع هذا التنوع أو التعدد في تركز هذه المرويات حول محور الإحسان أو الإجادة.

وظاهر الدلالة في هذه المرويات القصر على أصحاب السيادة والأمراء والفقهاء وذوي المشارب الدينيّة من المحدثين وسواهم من غير أهل الاختصاص، غير أننا نجدها تجري في أوساط عدة، تنتظم الأدباء والنقاد والبلاغيين واللغويين، ولكنها تأتلف في اتجاه مطرد في ترسيخ نظرية القيم الخلقية والقيم الجمالية في تراحم ونسب إلى التصور الإسلامي، بالنص العام على جوانب الحسن في مجموعة من النصوص، أو التنبيه الخاص على قيم جمالية في بعض الأبيات والقصائد؛ توجيهاً لروايتها وحفظها، وحضاً على رعاية معيار الإحسان فيها.